وجهة نظر أولويّات الدَّرس القرآني حاضراً

محمد مجتهد شبستري

ما يشغل ذهني على نحو جادّ من البحوث القرآنية، هو موضوع مباني فهم القرآن وتفسيره. فمع أن المقولات ذات الصلة بمرتكزات فهم القرآن، قد جاءت مبثوثة في ثنايا الدراسات القرآنية والدينية، بيد أننا لا نزال نتلمس حاجة ملحّة لدراستها في الوقت الحاضر وإحاطتها بالمزيد من البحث والحوار.

ينبغي لنا أن نحدّد في الخطوة الأولى لغة القرآن؛ ما هي؟ وما طبيعتها؟ وإلاّ سيغدو طرح أي سؤال آخر على القرآن ـ من دون إنجاز هذه الخطوة ـ أمراً عقيماً لا معنى له.

فأول الأسئلة إذاً: ما هي طبيعة القرآن ككتاب؟ لو كان القرآن كتاباً عادياً مثل كتابٍ في الفلسفة، أو الأخلاق، أو الفقه؛ لكان يمكن أن نتعاطى معه بتلك الطريقة نفسها التي ألفتها عقولنا إزاء تلك الموضوعات، ومن ثم نسعى إلى تحديد أهدافه وترسيم موضوعاته، ولغته على هذا الأساس. ولا غرابة في ذلك فالموضوعات هي موضوعات الإنسان وكتاباته ونحن نتحدث عنها في نطاق المعايير الإنسانية، حتى لو كانت خاضعة للنقد؛ إذ النقد في هذه الحالة يتَّجه إلى فعلنا نشاطنا؛ إلى شيء نلمّ به ونعرفه، وعندئذ لا شيء يبعث على الاستغراب. فأهم مسألة إذاً هي: ما هي طبيعة الظاهرة القرآنية؟ ولست أقصد طرح بحث الإعجاز من وراء ذلك، وإن كان مسار الموضوع ينتهي إلى تلك التخوم شئنا ذلك أم لم نشأ.

قدم البحث عن طبيعة القرآن:

هذا الضرب من البحوث كان مألوفاً عند الأقدمين؛ إذ اعتادوا طرحه عبر مباحث الكلام النفسي والكلام اللفظي، وبخاصة إذا لاحظنا ما بذله المعتزلة لتبيين المراد من كلام الله.

لقد انطلقت جهود المعتزلة والأشاعرة، وهي تتحرك في

أفق عصرها وتماشي مستوى ذلك الزمان، حيث عكف الشهرستاني على بيان شطر منها في كتاب «**نهاية الإقدام**»، على حين توفّر الأشعري على نقل شيء من تلك البحوث وما حفّها من رؤى ومداخلات في كتابه «**مقالات الإسلاميين**». ومن جهته، خصَّص القاضي عبد الجبار مجلداً من كتابه «**المغني**» لهذه القضية التي تدور أساساً حول معنى الكلام والمراد منه، وما معنى نسبته إلى الله سبحانه.

أجل، ارتقت بحوث أولئك إلى مستوى عصرهم، وماكان يحفل به من متطلبات، بيد أن المسألة اكتسبت في عصرنا صبغة أخرى، وراحت تُطرح على نحو آخر هو: ما هي طبيعة القرآن أساساً؟

نحن المسلمين نعتقد أن النبي (صلّى الله عليه وآله) لم يكتب القرآن، بل نزلت عليه آياته حتى بألفاظها فراح يقرأها، ثم عمد كتّاب الوحي إلى تدوينها. بإزاء ذلك ينبغي أن نعرف: أساساً ما معنى تفسير شيء هذه هويته؟ ظاهرةٌ من هذا النوع من الكلام، كيف تكون قابلة للفهم في إطار القواعد المتداولة للفهم وما يكتنف ذلك من مسائل؟ ينبغي أن نحدّد ما هو الكلام بنظرنا وماذا يعنيه في عصرنا؟ هل نبني على ما آمنت به المعتزلة، من أن الكلام مجموعة أصوات اكتسبت نظماً خاصاً، أم نقول: إن الكلام هو ما يترشح عن الذهن، وعن مجموعة الأعصاب، وهو عبارة عن مفاهيم تمّ التوافق عليها مسبقاً، ثم تُبيّن في نطاق خطاب مألوف؛ بحيث إن الكلام لا يعدّ كلاماً من دون هذه المقدمات؟

لست أريد إبداء رأي خاص الآن، إنما أهدف أن أومئ ببنان إلى المشكلة الأساسية. نحن إزاء هذا التسلسل: كلام جاء إلى النبي ووصل إلى أذنه، وهو يدعي ويشعر أنّه مخاطب من الله، وأن هذا الكلام جاء من عند الله لكي يصل عبر النبي إلى كتّاب الوحي، وبواسطتهم إلى الآخرين. هذه ظاهرة غير مألوفة بالنسبة إلى البشر.

ثم إن هذه الآيات نزلت منجّمة على مدى ثلاث وعشرين سنة، ونحن نؤمن، بأن لها ضرباً من المضمون الواحد، فمن أين جاء هذا المضمون الواحد؟ وعندما نقول: ينبغي تفسير الآيات بعضها ببعضها الآخر، فما هو المراد من ذلك تحديداً؟

الهرمنيوطيقا بين المسلمين والمسيحيين:

لم نتوفر حتى الآن على جواب هذه الأسئلة حيال القرآن، عبر نافذة البحوث ذات الصلة بفلسفة اللغة، والدلالات اللغوية والهرمنيوطيقا، على حين أن المسيحيين بذلوا عناية فائقة خلال القرنين الماضيين واشتغلوا على النصوص الدينية بمنتهى المثابرة والجد، فانتهوا إلى نتيجة شاخصة إزاء الكتاب المقدس.

لست أزعم أننا كنا سوف نصل إلى النتائج والأجوبة نفسها التي وصل إليها المسيحيون حول الإنجيل، لو أننا قمنا بالبحوث نفسها حيال القرآن الكريم، ولا أريد أن أقول ذلك. هم حسموا الأمر بوضوح، حينما انتهوا، أنه بالإمكان إزاحة الأبعاد غير العادية في الكتاب المقدس، ودفعها جانباً، ليضحي الكتاب مفهوماً بالنسبة إليهم. آل الامر بهم نهاية المطاف إلى اعتبار الكتاب المقدس مجموعة من الإخبارات التي أدلى بها عدد من المخبرين هم أصحاب الأناجيل الأربعة. فكل ما في الأمر أن أصحاب الأناجيل أخبروا عن إيمانهم، وما أخبروا به وتحدّثوا عنه هو شهادة إيمانهم، فالكتاب المقدّس بناء على هذا هو إخبار عن التجربة التي عاشها أولئك النفر من أصحاب الأناجيل.

قد يتأثر بقية الناس بهذه الشهادة الإيمانية ويخضعون لإيحاءاتها، حتى يكتنفنا إحساس بأننا مخاطبون من قِبل الله. وهذا أمر مفهوم، وكونه مفهوماً لا بمعنى إمكان إقامة الدليل الفلسفي عليه، بل بالمعنى الذي يفهم فيه الإنسان حصيلة كلام الطرف المقابل إذا ما تحدث إليه. هذه هي الحدود المتاحة للفهم.

ليس عندنا مثل هذه الدراسة حيال لغة القرآن حتى الآن. أجل، ربما عثرنا في ثنايا كلام السابقين على نظريات تنطوي على جدوى عظيمة في وضعنا الحاضر، ولها منفعة كبيرة، بيد أنها مغيّبة في مطاوي الكتب.

ما أعتقده شخصياً أن **لابن عربي** كلاماً تعامل فيه مع الوحي بمعنى خاص؛ معنىً لم يطرأ على ذهن الآخرين ولم يعرض له المتكلمون، كنت قد عرضت بعضه في كتاب «**هرمنيوطيقا الكتاب والسنة**». ينطوي كلام **ابن عربي** على شبه كبير مع نظرية المسيحيين حيال كلام الله، إنه يتعاطى مع كلام الله من خلال أثر الكلام، وليس من خلال استثنائية الكلام، وأنه كلام من نوع مختلف،وأثر الكلام هي الهزة النافضة، والأثر القوي الذي يتركه في الإنسان.

في الكلام المسيحي حاولوا حل المشكلة بالنحو الآتي: أجل هناك تناقض ينطوي عليه الإنجيل، وهذا طبيعي؛ لأن الأناجيل الأربعة التي وصلت إلينا ما هي سوى ضروب من الفهم الإنساني، والإنسان مبتلىً بالتناقض، لكن ينبغي أن ننظر ما هي الرسالة الثاوية وراء هذا الكلام، ثم علينا أن نلتقط تلك الرسالة الموحدة المشتركة الكامنة وراء الكلام. هكذا ذكروا.

الموضوع نفسه تناوله المتكلمون المسلمون أيضاً، لكن ببواعث أخرى، ومن زاوية جديدة؛ لأن الشواغل (الهموم) تختلف بين الاثنين، ودوافع قدماء علم الكلام الإسلامي واهتماماتهم تختلف عن دوافع المتكلمين المسيحيين، فكل واحد من الفريقين تحرك في

المضمار الأكثر إلحاحاً، وبذل جهداً أكبر فيما يكون موضع سؤال واعتراض بالنسبة إلى هموم ساحته.

الكلام الإسلامي بذل نشاطاً أكبر في مجال النبوة؛ لأنه رأى منكري النبوة شاخصين أمامه، على هذا صارت النبوة المحور الأساسي، والبذرة الأصلية لانطلاقة الكلام الإسلامي، ثم جاء الدور إلى التوحيد بعد أن امتد الكلام واتسع.

إن قضيّتنا الأساسية في العالم المعاصر هي: أن نحسم الموقف من هذا الموضوع؛ موضوع طبيعة الظاهرة القرآنية، وطبيعة لغتها، والمرتكزات التي ينبغي على أساسها فهم هذه الظاهرة والتعاطي معها.

المشكلة في وجهها الآخر:

وثمة وجه آخر للمشكلة، فمن يقول: إنه نبي، معنى نبوته أن آثاره الوجودية هي كآثار بقية النبيين، كما أنه من صنف النبيين. والآن لنفترض أنه وبدلاً من معرفة النبي من خلال مواعظه وسيرته، نعمد إلى تقسيم الناس إلى أصناف مختلفة أحدها صنف النبيين. إن لهؤلاء خصائص على أساسها نسمي الواحد منهم نبياً، فللنبي تجربة تاريخية، بمعنى أنه أحسّ في لحظة الوحي الأولى أن النداء الإلهي، قد ملأ آفاق الوجود وأحاط بالأرض والسماء، ثم شعر بالخشية، وقال: «**دثّروني**». هذه الوقائع هي تعبير عن حالة، راح النبي يحدّث بها بعدئذ، ويخبر بآيات الله، هذه حقائق وأمور واقعية.

بيد أن السؤال: كيف سيتعامل الآخرون مع إخبارات النبي فيما بعد؛ أي بعد لحظة الوحي، والحالة التي لابست النبي؟ هل سيكونون على مستوى من عاش التجربة ذاتها ولامس تأثيرها ومداها، أم لا يزيد الأمر بالنسبة إليهم عن حكم تاريخي أخبر به النبي وحسب؟ ليس أمامنا من سبيل قط لإثبات صحة دعوى النبي، بحيث نفهم ما الذي كانت عليه تجربته وحالته، بمعنى أن طريق الاستدلال مغلق هنا وما من سبيل لجعل التجربة الشخصية مشهودة بالنسبة إلينا، فهذه التجربة [أو الحالة] خاصة بشخص النبي.

والآن هذا هو النبي الذي بمقدوره أن يتصرف في إخباراته بطريقة بحيث يجعلني أحسّ أنا أيضاً وكأنني المخاطب بالكلام الإلهي. إذا ما انبعث فيّ هذا الإحساس، أستطيع أن أستوحي من الآيات وأدرك منها معانيَ يعجز عنها الآخرون، ولا يرتقون إلى مدى ما عندي.

الحصيلة المترتبة على ذلك أنه: إذا ما اكتسبت الآيات التي يتلوها النبي على الآخرين حالة الوحي بالفعل، وإذا ما شعروا أن ما يتلقونه هو الوحي نفسه، وما سوى ذلك من

كلام ليس وحياً؛ إذا ما عاشوا في كنف هذه الحالة فسيتحقق المطلوب؛ لأن هذا هو ما يصبو إليه الجميع. لكن مع فارق يتمثل، بأن من لم يعش هذه الحالة لن يفهم أن هذا وحي؛ لأن إدراكه لم يرتق إليه، فمن لم يتذوق التجربة ولم يعش التلقّي بمثل تلك الحالة سيّان عنده هذا أو ذاك.

إن إدراك أن هذا الشيء آية، وأن هذا الإنسان نبي، هو أمر تجربيٌّ، فإذا ما رام إنسان أن يدرك آيات الله ويصل إليها، فسبيله إلى ذلك هو التجربة والمعاناة.